بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الطبعة

يمثل التصوف قاسمًا مشتركًا بين الأديان جميعًا، فالبعد الصوفي- الروحي- هو البعد الحاضر في كل الأديان، ومن ثم نشأ حقل علمي يسمى (التصوف المقارن) لدراسة هذا الجانب الحيوي في الأديان على اختلافها.

ويركز كتابنا هذا على محاولات المستشرقين تفسير نشأة التصوف الإسلامي، لقد سار كثيرٌ منهم في أزقة ضيقة متعرجة، وهم يناقشون نشأة التصوف الإسلامي وانتهى بعضهم إلى نتائج لا تستند إلى حيثيات الواقع والبراهين المستمدة منه، وغلا بعضهم في شططه وافتراضاته، فاقترحوا لنشأة التصوف الإسلامي مصادر وأسبابًا غير إسلامية، واستغرقتهم نظرية (التأثير الأجنبي) غير الإسلامي على المسلمين في هذا الصدد، واجتهدوا في محاولتهم نزع الأصالة عن التصوف الإسلامي.

قلت إن دراسة التصوف الإسلامي في العصر الحديث قد بدأت في الغرب، على يد جماعة من كبار المستشرقين، وقلت إن دراستهم للشعر الفارسي، وللشعر الصوفي منه على وجه الخصوص، قد جذبتهم إلى دراسة التصوف الإسلامي. لقد استوقفتهم أسماء كبيرة من شعراء الصوفية الذين كتبوا بالفارسية مثل سنائي، ونظامي، والعطار، وجلال الدين الرومي، وسعدي، وحافظ.. الخ.

كان ذلك مدخلهم لدراسة التصوف الإسلامي الذي حكموا عليه من خلال معرفتهم وخبرتهم بالشعر الصوفي الفارسي، الذي اجتمعت له رمزية الشعر إلى رمزية التعبير عن التجربة الصوفية. ومن ثم، جاءت بعض أحكامهم عن التصوف الإسلامي معممةً، وغير مستوعبة للتجربة الصوفية في العالم الإسلامي على اتساعه في التاريخ والجغرافيا معًا.

لقد طغت أحكام المستشرقين الرواد في درس التصوف الإسلامي على تلاميذهم في الغرب والشرق الإسلامي معًا، واستمر الباحثون في التسليم بها، وروايتها، وتكرارها زمنًا طويلًا، إلى أن نهض جيلٌ من الدارسين المسلمين بمراجعة هذه الأحكام ومناقشتها وتقويمها.

ولا ينكر أن للمستشرقين جهودًا مشكورة في تحقيق ونشر كثير من كتب التصوف الإسلامي المخطوطة، وترجمة بعض هذه الكتب إلى اللغات الأوروبية، ونشرها للقارئ الغربي الذي انعطف إلى بعضها في لهفة وشوق كبيرين لافتين، ومما يجدر ذكره هنا أن ترجمة أشعار جلال الدين الرومي الصوفية المولوية من أكثر الكتب توزيعًا في الولايات المتحدة الأمريكية.

ويلاحظ أن التصوف بحسبانه الحياة الروحية الإسلامية - يمثل المدخل الجاذب للإنسان الغربي إلى الإسلام، أكثر من غيره من المداخل. وربما كان ذلك لغلبة الحياة المادية ومحاصرتها له؛ مما دفعه للتعرف على الجوانب الروحية والانجذاب إليها.

وغني عن البيان أن من التصوف حقًّا وباطلًا، والحق منه هو ما تأسس وتقيد بالكتاب والسنة، والتصوف الغالي هو ما تفلَّت عنهما وابتعد وأسرف. ولكلٍّ مؤلفات ورجال وطرق ومريدون، وليس من الحق أن نرفض الحق لأن بعض الغالين قد تنكبوا له أو دسُّوا عليه، وحاولوا طمسه أو تشويهه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

محمد الشرقاوي

المدينة المنورة

السادس من المحرم ١٤٣٨هـ

٧-١٠-٢٠١٦

obeikandl.com

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه..

ثم أما بعد:

فقد استحوذ «التصوف» على أذهـان كثير من الباحثين في الغرب والشرق على السواء، وقد حظي بدراسات واسعة تنوعت منهجًا وأسلوبًا وهدفًا.. واختلط فيها المدح بالقدح. ومع ذلك فإن الاهتمام به ما يزال متجددًا، والبحث فيه ما يزال متصلًا، ولم يعد ذلك مقصورًا على الدارسين والمتخصصين من المسلمين والمستشرقين فقط، وإنما هو يجذب إليه القارئ العادي الذي أصبح يحس بوطأة المذاهب المادية والعبثية المعاصرة على نفسه، وبحاجته إلى ما يرضي عقله ويشبع روحه، ويلم شعثه، ويزيل وحشته، ويذهب بحزنه ويسد فاقته، ويعيد إليه سكينته وطمأنينته، التي أخذ يفقدها في زحمة الحياة المادية، وما فيها من ألوان الصراع العقائدي.

الإنسان لا غنى له عن ربه، والإنسانية لا غنى لها عن الدين، والدين لا قوام له بغير الحب والخشية، ومن هنا كانت حاجتنا إلى هؤلاء المحبين العارفين الذين يشعلون زيت الفطرة الذي يكاد يضيء في حنايا القلوب، ولو لم تمسسه نار، نور على نور.

ومن هنا فإنَّ دوافع قوية متجددة ومتنوعة تدعونا إلى أن نعيد النظر، ونقلب الرأي، ونتابع البحث في قضايا التصوف؛ بعضها يرجع إلى طبيعة الموضوع، وبعضها يرجع إلى طبيعة نفوسنا ذاتها، وبعضها يرجع إلى ظروف العصر حولنا، والبعض الآخر يرجع إلى اعتبارات دينية وثقافية وتاريخية

تعني المثقف المسلم بوجه خاص، ولكنها جميعًا تمثل حاجة فكرية ومعنوية وروحية لا يسعنا إهمالها بحال[١].

ورغم وفرة البحوث التي ظهرت عن التصوف الإسلامي وثرائها وتنوعها، فإنَّ مسألة البحث عن مصدر التصوف ونشأته لا تزال تجذب كثيرًا من الباحثين- الغربيين خصوصًا- إليها. وعلى الرغم من أنَّ كثيرًا من الباحثين المسلمين قد فرغوا من وضع حل لهذه المسألة؛ فإن الآراء التي اقترحها الباحثون الغربيون والأحكام التي أدلوا بها- على اختلافها وتباعدها- لا تزال تجد لها أنصارًا ومدافعين جددًا، مما يجعل القضية مثارة أمام الباحثين؛ فهي شأن قديم جديد معًا.

من المقرر الثابت- اليوم- أن بحث التصوف الإسلامي ودرسه- في العصر الحديث- قد بدأ في القرن التاسع عشر، في الغرب، على أيدي جماعة من جهابذة المستشرقين مثل: ثولك، وألفرد فون كريمر، ودوزي، وإدوارد جرانفل براون، وماكس هورتن، وريتشارد هارتمان، وجولد زييهر ودي ساسي ومرجليوث، ثم تابعتهم أجيال متعاقبة من المستشرقين مثل: ماكدونالد، وكارادیفو، وجب، وأسين بلاسيوس، وماسنيون، ونيكلسون، ومرجريت سميث، وأريري، وهنري كوريان، ولويس جارديه، وتيتوس بروكهارت، ووليم ستودارت، ومارتن لنجز، وأنيماري شيمل، وأوستن، وترمنجهام سبنسر، ومولیه، وجوليان بلديك، وسرج دي بروكوي، وغير هؤلاء ممن يصعب حصرهم في هذه المقدمة.

---

(١) انظر مقدمات المراجع التالية:

- فصول في التصوف، للدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، ص٣/ ٤ طبعة دار الثقافة، ١٩٩٢.
- مدخل إلى التصوف الإسلامي، للدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، ص ح، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، ١٩٧٩.
- التصوف: طريقًا وتجربة ومذهبًا، للدكتور كمال جعفر، ص٢، طبعة القاهرة.

Obeikandl.com

ولئن كان الباحثون الغربيون هم الذين بدأوا دراسة التصوف الإسلامي على نطاق واسع في القرن التاسع عشر، فإنَّ العلماء المسلمين قد تنبهوا إلى أهمية دراسة التصوف في الربع الأول من القرن العشرين، وقد تتلمذ الباحثون المسلمون من العرب ومن شبه القارة الهندية؛ على بحوث العلماء الغربيين بصورة مباشرة أو غير مباشرة، واستمرت بحوثهم تترى دون توقف إلى اليوم.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الباحثين الغربيين قد عرفوا التصوف الإسلامي أول ما عرفوا، ولجوا إليه من خلال دراساتهم للشعر الفارسي المتأخر، وقد طبعت هذه المعرفة الناقصة المحدودة، التي اعتمدت على وثائق متأخرة ذات طابع خاص، دراساتهم الأولى- في القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين-

للتصوف الإسلامي، فكانت بحوثهم فجة في جانب كبير منها، جدلية في جوانب أخرى. وينبغي أن نتذكر طبيعة العلاقة بين الغرب المستعمر والشرق المقهور في هذه الحقبة من التاريخ التي بدأت فيها دراسة التصوف؛ وكل ذلك قد ترك أثره على أسلوب هذه البحوث ومعطياتها.

ومما يشار إليه هنا أن دراسة التصوف الإسلامي في الغرب قد تطورت، وأن الأحكام الأولى قد تعدّلت، وأن اتجاهات الباحثين هنالك قد استقامت في أغلب الأحـوال، إلى الحد الذي يمكن أن يقال معه: إن المستشرقين المعاصرين قد تنكروا تمامًا للدراسات السابقة التي عكست روح عصرها تلك الروح الاستعمارية الجدلية المستعلية، وأحكامها العامة المتحيزة، ولقد أبانت هذه الدراسة عن ذلك بوضوح تام.

ومهما يكن من أمر، فإن الظاهرة التي تستوقف النظر، هي: أن كثيرًا من الدارسين المتخصصين المسلمين الذين أوْلوا عنايتهم لبحوث المستشرقين،

قد توقفوا عند دراسات لويس ماسنيون، ورينولد نيكلسون، ولم يهتموا بالدراسات الغربية التي أنجزها الباحثون الغربيون بعد هذين الرائدين. مع أن هذه الدراسات المعاصرة أسلم توجهًا، وأفضل نتائج، وأخصب مادة، وأصدق لهجة، وأعدل منهجًا من معظم البحوث السالفة. وهذا ما دفعنا إلى الاهتمام بمتابعة الاتجاهات الغربية الحديثة والمعاصرة في دراسة مصادر التصوف الإسلامي وآثاره.

وقد جاء هذا الكتاب في قسمين:

تتبع القسم الأول اتجاهات الباحثين الغربيين الحديثة والمعاصرة في درس التصوف الإسلامي: مصادره وآثاره، دراسة تحليلية نقدية. ومما يذكر هنا أننا حرصنا على الرجوع إلى المصادر الأصلية، وترجمنا عنها مباشرة، ونقلنا بعض النصوص الأساسية المهمة بلغتها الأجنبية- إلى جانب الترجمة العربية.

ولم يقف هذا البحث عند الدراسة التحليلية النقدية للنظريات الغربية التي وضعت لتفسير نشأة التصوف الإسلامي. بل درسنا أثر الإسلام والتصوف الإسلامي على الحركات الإصلاحية الدينية والجماعات الصوفية الهندية، ذلك التأثير الذي بدأ يظهر ويتميز منذ القرن الثامن الميلادي، الأول الهجري. كما عرضنا لتأثير التصوف الإسلامي على التصوف المسيحي والنظم النسكية لدى القديس توما الإكويني، وفرانسيس الأسيزي، ويوحنا الصليبي، وأيكهارت، وتريزا، ثم تتبعنا أثر محيي الدين بن عربي على المتصوف ريموندلول، كما شرحها الباحثون الغربيون مثل: خوليان ريبيرا وأنيماري شيمل، وغيرهم. كما عالجت الدراسة تأثير الفكر الهندي القديم على الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، التي أثرت أعمق تأثير على المسيحية ورهبانها ومتصوفيها؛ علاوة على تأثيرها العميق على مؤسس المسيحية نفسه، أعني: القديس بولس الطرسوسي. ثم درسنا أخيرًا المصدر الإسلامي للتصوف،

على أساس أن التصوف هو الأخلاق الدينية المستمدة من الكتاب والسنة، وعلى أساس أن الصوفية قد ورثوا جانبًا من وظائف النبوة، وقد استأنسنا بأقوال شيوخ الصوفية وأوليائهم، واقتبسنا أقوال كبار المستشرقين التي برهنوا فيها على أن مصدر التصوف إبّان النشأة إسلامي خالص؛ جذوره في الكتاب والسنة.

أمّا القسم الثاني من هذا الكتاب فقد شغلته ترجمتنا لدراسة المستشرق (R.Casper) بعنوان: «اتجاهات غريبة معاصرة في دراسة التصوف الإسلامي». وقد قدمنا لهذه الدراسة بمقدمة ضافية، وعلقنا عليها تعليقات مطولة. وهذه الاتجاهات التي بحثها ر.كاسبر هي:

١ـ الاتجاه العرفاني الغنوصي الباطني في الشرق الإسلامي: ويمثله هنري كوربان.

٢ـ الاتجاه الناموسي، التوحيد التلفيقي بين الأديان: ت. بروكهارت.

٣ـ التصوف الطبيعي والفائق للطبيعة: لويس جارديه.

٤ـ دراسة «سرج دي بوركوري» دراسة (مونوجرافية) للشيخ الهروي الأنصاري صاحب منازل السائرين.

هذا، وأرجو أن يجد القارئ الكريم فائدة علمية تعدل الجهد المضني الذي بُذل في إنجاز هذا الكتاب. والله تعالى أسأل الإخلاص والسداد والمثوبة.

محمد عبد الله الشرقاوي

١٥/ ١/ ١٩٩٣م

obeikandl.com